آليّات مواجهة الإلحاد الفكريّ
-مداخل تأسيسيّة-

الدكتور حسان عبدالله حسان[1]

خلاصة المقالة:

تهدف هذه المقالة إلى تقديم منهجيّة لبناء آليّات لمواجهة النزعات الانحرافيّة في ما يتعلّق بمسألة الإيمان في مجتمعاتنا المتديّنة، وقد تمثّلت هذه النزعات الانحرافيّة التي نركز عليها في هذه المقالة في ما سمِّي من قِبَل متابعين لها بالإلحاد الفكريّ. وتقوم هذه المنهجيّة على بناء مفهوم مقترح أولًا لهذه التسمية من خلال الفضاء اللغويّ والاصطلاحيّ والفلسفيّ، وتحديد أهمّ منطلقات هذه المنهجيّة، ثمّ بناء أهمّ المداخل التأسيسيّة لهذه النزعة الانحرافيّة التي حدّدتها الدراسة في أربعة مداخل؛ هي: خبرة الفكر الإصلاحيّ، وتجديد أبنية علم الكلام لتتأهّل للمواجهة وتزويد باقي وسائط المواجهة التربويّة والفكريّة بالثقافة اللازمة، والتنشئة الدينيّة الواعية على أساس أنّ الوقاية أهمّ من العلاج وخير منه، والمدخل الرابع تأسيس مراصد التفكير والبحوث التي تقوم برصد هذه النزعات في مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة والمنابع التي تغذّيها وطبيعة تلك المنابع والاتّجاهات الفكريّة التي تعتمد عليها في مرجعيّتها وطريقة عملها؛ وذلك من أجل تصميم خارطة فكريّة تساعد في فهم هذه الحالة والتعامل الراشد معها.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، وأستاذ أصول التربية المساعد في جامعة دمياط، من مصر.

كلمات مفتاحيّة:
الإلحاد الفكريّ، علم الكلام، التنشئة الدينيّة، الفكر الإصلاحيّ، مراصد التفكير والبحوث، الدين والعلم، التربيّة العقديّة، المذاهب الفلسفيّة.

مقدّمة:

أصبح العالم المعاصر يموج بحالات من القلق الفكريّ غير مسبوقة في التاريخ الإنسانيّ، ويرجع البعض ذلك إلى شعور الإنسان المعاصر بالهيمنة الكاملة على الطبيعة، وما نتج عنه من الغرور الأخلاقيّ، والفراغ الروحيّ باندماج الإنسان مع هذه الطبيعة والتماثل معها إلى تحوّله إلى ما سمِّي بظاهرة الإنسان الطبيعيّ، التي تختزل الإنسان في بُعد واحد هو البعد المادّيّ.

وقد استطاعت الحضارة الغربيّة المعاصرة نَمذَجة هذا الاندماج بين الإنسان والطبيعة في ما عرف بالنماذج الاختزاليّة؛ أي التي لا ترى إلا بعدًا واحدًا في الإنسان «وهذه النماذج تردّ الإنسان إلى النظام الطبيعيّ المادّيّ والذي يصبح جزءًا لا يتجزّأ منه، فالإنسان وفقًا للنموذج الغربيّ - كائن طبيعيّ (مادّيّ) موجود في كلّيّته داخل النظام الطبيعيّ (المادّيّ) يعيش في الطبيعة وبها ومنها وعليها، ولا وجود له خارجها. جزء لا يتجزّأ منها، يسري عليه ما يسري على الكائنات الأخرى. والإنسان وفقًا لذلك أهدافه مدمجة في الطبيعة وليست له أهداف مستقلّة عنها أو فوقها بحسب القانون الطبيعي الذي يسري على كلّ الكائنات. والذي يفسّر الإنسان في ضوئه من خلال القوانين الطبيعيّة»[1].

وانتقلت هيمنة النزعات المادّيّة على الإنسان من الغرب إلى مجتمعاتنا الإسلاميّة عن طريق الغزو الفكريّ ومشروع التغريب، وعن طريق التقليد والاستلاب الفكريّ.

(1) المسيري، عبد الوهاب: العالم من منظور غربي، القاهرة، دار الهلال، 2000م، ص125.

والإلحاد الفكريّ هو أحد توجّهات الحضارة الحديثة التي تخلّت عن الإله فور انتصارها على الكنيسة والطبيعة معًا، وكانت ردّة فعل لدى كثير من الاتّجاهات الفلسفيّة المعاصرة التي حاولت أن تجد لها رصيدًا تاريخيًّا في ذلك، وأنْ توظِّف نتائج العلوم المعاصرة في تأصيل هذا الاتّجاه.

يرى أحد الباحثين أنّ الإلحاد الفكريّ: هو إنكار الله وعدم قبوله، وفي مستوى التصوّر هو حالة الحرّيّة بلا حدود، أمّا في مستوى العمل والسلوك، فيتبنّى الإباحيّة ويدافع عنها.. ومن أهمّ أسباب وجوده في مجتمعاتنا الإسلاميّة: إهمال الأجيال الشابّة، وسوء التطبيق للدين في دور العلم ومعاهده، والتمويل الدولي والسريع لتيّارات الإلحاد واتّجاهاته، والجهل وعدم امتلاك قابليّة التحليل والتركيب، وفقر الغذاء الروحيّ والقلبيّ[1].

وبناءً على ما تقدّم، تسعى هذه المقالة إلى تقديم مداخل تأسيسيّة لبناء آليّات لمواجهة نزعات الإلحاد الفكريّ التي بدأت في الظهور في مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة من خلال الإجابة على سؤال رئيس هو: ما المداخل التأسيسيّة لبناء آليّات لمواجهة «**الإلحاد الفكريّ**» في ضوء المفهوم والسياقات السابقة؟

أمّا المنهجيّة المعتمدة فيها؛ فهي المنهج الوصفّي التحليليّ الذي يقوم على وصف الظاهرة وتحليلها إلى عناصر وإعادة تركيبها مرّة أخرى، بهدف تقديم فهم أعمق لها، وبالإضافة إلى هذا الفهم فإنّ المقالة تنشغل بصورة أساسيّة بالبحث في استدعاء طرق المواجهة في الأمّة لهذه الظاهرة، مع الاستفادة من توظيف حركة الفكر المعاصر في هذه المواجهة.

وتقوم المقالة على منطلقات معرفيّة عدّة في تأسيس مفهوم المواجهة وآليّاته الفكريّة والتربويّة المختلفة، وهذه المنطلقات؛ هي:

1. أنّ مصادر / روافد الإلحاد الفكريّ متعدّدة ويحقّق كلّ منها أهدافًا جزئيّة /

(1) انظر: كولن، محمد فتح الله: أسئلة العصر المحيّرة، القاهرة، دار النيل، 2008م، ص25.

وظائف جزئيّة، ولكنّها في النهاية تصبّ في روافد الإنكار وزعزعة الإيمان، فالاستشراق والتبشير والنزعات الفكريّة المادّيّة، والطعن في الرسول والقرآن، كلّها ذات أهداف لزعزعة الإيمان في نفوس أهل الدين [الإسلام] ومحاولة التشكيك في مراجع / مصادر الغيب لدى النفس المؤمنة.

2. قد يكون أهل الدين أنفسهم أحد أسباب النزعات الإلحاديّة؛ وذلك بسبب جهلهم بالمبادئ الدينيّة الحقّة، ورسالة الدين، ووظيفته للإنسان، أو عدم إدراكهم للقيم والتصوّرات والمفاهيم التي من شأنها أن تصنع شخصيّة قويّة محصّنة ضدّ الإلحاد.

3. ومن الروافد - أيضًا-: حالة الجمود الدينيّ وانسحابه من الشأن العامّ للإنسان، وفشل المشروعات السياسيّة التي أعلنت شعاراتها المستمدّة من الدين في تقديم برامج حقيقيّة للنهوض الاجتماعيّ.

4. إنّ مسؤوليّة مواجهة الإلحاد وما يرتبط به من نزعات وآثار لا يمكن أن تقع على فئة واحدة، ولكن يجب أن يتشارك الجميع فيها: الأسرة، والمعلّمون، والمبلّغون والخطباء، والإعلاميّون، ... لكنّ هذه الفئات لا بدّ أنْ تجد لها من المصادر / المراجع الفكريّة ما يوفّر لها القدرة على التثقيف التربويّ والدينيّ؛ بما يمكّنها من النجاح في هذه المهمّة.

5. إنّ آليّات المواجهة تتضمّن جانبين اثنين: الأوّل: الوقاية؛ بمعنى تهيئة بيئة تساعد على تحقيق الإيمان والقناعة العقليّة والوجدانيّة به، والثاني: جانب المعالجة/ المواجهة لأراء الإلحاد الفكريّ وأفكاره ومرجعيّاته وتصوّراته. إضافة إلى تأمين خطّة استراتيجيّة فكريّة ونفسيّة وعلميّة لتطوير سُبل المواجهة وتحديثها باستمرار.

6. في ضوء ما سبق، فإنّ مواجهة الإلحاد الفكريّ تتضمّن منظومة متكاملة من علماء الكلام - علماء النفس والاجتماع - علماء التربية، يستطيعون بناء مضامين متنوّعة تلّبي احتياجات المواجهة.

7. ليست كلّ أسباب الإلحاد ودوافعه عقديّة، بل يمكن أن تكون نفسيّة أو اجتماعيّة أو تربويّة، ومن ثمّ؛ فإنّ المواجهة يجب أن تتّسم بالتنوّع الفكريّ.

8. كذلك فإنّ هناك موضوعات لا يمكن اعتبارها بمجرّد طرحها تدخل في دائرة الإلحاد؛ مثل: «**الشكّ المنهجيّ**» الذي ينتهجه بعض الأفراد للوصول إلى الحقيقة، وهو طريق مشروع طالما أنّه التزم بشروط الشكّ المنهجيّ، وتحديد الغاية منه؛ وهو الوصول إلى الحقيقة، فكلّ طريق عقليّ / علميّ للبحث يوصل حتمًا إلى الله تعالى؛ طالما التزم مقدّمات منطقيّة وعلميّة في التناول والتعامل العقليّ سوف يصل بلا شكّ إلى النتائج الصحيحة التي تلزم عنها.

شكل (1) آليّات مواجهة الإلحاد الفكريّ

أولًا: خبرة الفكر الإصلاحيّ الحديث:

كانت حركة الفكر الإصلاحيّ أولى المواجهات للفلسفة الوضعيّة وغزوها لمجالات الفكر والثقافة والتعليم في العالم الإسلاميّ، حيث انشغلت بتفنيد مبادئ هذه الفلسفة ونزعاتها في تلك المجالات، وانطلقت في مواجهتها من مبدأ الدفاع عن العقيدة، وكانت في ذلك تقوم بدور «**علم الكلام الحديث**»؛ بصفته أداةً للدفاع عن العقيدة أمام محاولات الغزو الفكريّ والثقافيّ الغربيّ.

لقد حمل مشروع التغريب للعالم الإسلاميّ دعوته إلى الانسلاخ من الدين؛ بوصفه سببًا لتخلّف المسلمين واللحاق بقيم الحضارة الغربيّة المادّيّة من أجل إحداث التقدّم المنشود، لذلك أخذ مشروع التغريب يكثّف عمله عن مجال القيم والأفكار؛ لأنّها الأكثر أثرًا وبقاء وضمانًا لتحقيق هذه الدعوة. ومن أهمّ أهدف مشروع التغريب بمساراته المتعدّدة (التبشير، الاستشراق، العلمانيّة)؛ ما يلي:

1. التشكيك في العقيدة الإسلاميّة وأركانها الرئيسة: التوحيد، والنبوّة، والقرآن.
2. زحزحة الدين عن البرنامج التربويّ لبناء الشخصيّة المسلمة في: التعليم، ووسائل الإعلام، وبرامج الثقافة.
3. فصل الدين عن نظم المعاملات في المجتمع الإسلاميّ - بصفة عامّة - عن النظام السياسيّ (واستدعاء العلمانيّة)، وعن النظام الاقتصاديّ (البنوك الربويّة والاقتصاد الوضعيّ)، والنظام القضائيّ (القوانين الوضعيّة والتخلّي عن أحكام الشريعة في المعاملات المدنيّة وحصرها في مسائل الأحوال الشخصيّة).

ومن ثمّ جاءت أفكار حركة الإصلاح الفكريّ الحديث للردّ على هذه الأفكار التي حملها مشروع التغريب ومشروع الفلسفة الوضعيّة في الحضارة

الغربيّة المعاصرة، ومن أبرز هذه الأفكار ما كتبه السيّد جمال الدين الأفغاني (1838-1897) في «**الردّ على الدهريّين**»[1]، حيث اهتمّت هذه الرسالة بالنقد والتحليل لمواقف «**الدهريّين**» أصحاب النزعة المادّيّة في صورتها الحديثة «**النيتشريّة**» ودعاتها «**النيتشريّين**»؛ أي دعاة الطبيعة؛ مذهبًا ونهجًا فكريًّا ودينًا واعتقادًا، والذين يرون أنّ الإلحاد بالأديان أصبح ضرورة حضاريّة.

ويذكر في ذلك: «.. ولهذا رأيت من الحقّ أنْ أشرح مفهومها، وأكشف المراد منها، وأرفع الستار عن حال النيتشريّين من بداية أمرهم، وأعرض للناظرين شيئًا من مفاسدهم، مستندًا في ذلك على التاريخ الصحيح، آخذًا من البرهان العقليّ بدليل يثبت خطورة هذه الطائفة على الأمم والمجتمعات»[2].

وقد دحض الأفغاني في هذه الرسالة القصيرة نظريّة النشوء والارتقاء عند دارون -والتي يستند إليها الفكر الإلحاديّ الحديث في كثير من نزعاته- وكذلك غايات المذهب المادّيّ وعلاقته بقضيّة إنكار الله وتعرّض لدهريّو الشرق الذين تلبّسوا بالمدنيّة؛ لإدخال المذاهب المادّيّة إلى العالم الإسلاميّ، وتحدّث - أيضًا - عن الاعتقاد في الألوهيّة وضرورته الإنسانيّة الفطريّة والاجتماعيّة والحضاريّة للأمم.

أمّا الشيخ محمّد عبده (1849 - 1905م) فكتب «**الإسلام بين العلم والمدنيّة**»[3]، حيث عالج شبهةً من أهمّ الشبهات الفكريّة التي عرضت على الأمّة إبان احتكاكها بالحضارة الغربيّة هي أنّ الإسلام دين يعارض التقدّم والتطوّرات العلميّة الحادثة، ويكرّس الجمود والتخلّف وإلغاء العقل، ويذمّ التفكير والحرّيّة، فجاءت هذه الرسالة لتوضّح أنّ مسألة الجمود وتخلّف

(1) الأفغاني، جمال الدين: الردّ على الدهريّين، ترجمة: محمد عبده، تحقيق: محمد أبو ريّة، القاهرة، دار الكرنك، 1960م.
(2) م.ن، ص37.
(3) عبده، محمد: الإسلام بين العلم والمدنيّة، تحقيق: طاهر الطناحي، القاهرة، كتاب الهلال، 1960م.

المسلمين إنّما يرتبط بحالة جمود الأنظمة التعليميّة وتخلّفها عن مسايرة تطوّرات العصر، وليس الجمود يخصّ الإسلام في ذاته؛ وإنّما في النظم الاجتماعيّة والفكريّة التي خالفت سنّة التطوّر، وتؤكّد الرسالة على «أنّ النظر العقليّ ضروريّ لتحصيل الإيمان: فأوّل أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقليّ. والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح. فقد أقامك منه على سبيل الحجّة وقاضاك إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم، فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه؟»[1].

فقدمت هذه الرسالة منهجًا عقليًّا في التعامل مع أصول الإسلام والمتطلّبات الاعتقاديّة فيه، وعن علاقة الإسلام بالعلم تؤكّد أنّ العلاقة اطراديّة بينهما، حيث يقوى الاعتقاد في الإسلام كلّما زاد الارتقاء في العلم، ويضطرب الاعتقاد كلّما تراجع المسلمون في مسيرتهم العلميّة. «فكلّما ارتقى الإنسان في العلم، ولطف وجدانه بالفهم، ونفذ عقله في أسرار الكون، تمزّقت دون روحه حجب المادّة، وانجلى له الوجود الأعلى على تفاوت كذلك في درجات الظهور والانجلاء، تنتهي إلى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادّة»[2]. و «أمّا ضعف العقل وقلّة العلم ونقص الإدراك تقف بصاحبها عند الوسائط، وقوّة العقل، ونفوذ البصيرة، وسعة العلم تصعد بأهلها إلى مشهد الوجود الأزلي، وتشرف بهم من هناك على العالم بأسره»[3].

ومن الكتابات المهمّة- أيضًا- في القرن العشرين في مواجهة الدعاوي المادّيّة ونقض الغيب ودعاوى الإلحاد: كتاب «**موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين وعباده المرسلين**»[4] لمصطفى صبري (1869 - 1954) شيخ الدولة العثمانيّة، وهو يهتمّ بكتابه بمتابعة وتحليل تفصيلي لكلّ ما يمسّ

(1) م.ن، ص119.
(2) م.ن، ص81.
(3) م.ن، ص83.
(4) صبري، مصطفى: موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين وعباده المرسلين، ط2، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، 1981م.

العقائد الإسلاميّة في ضوء تمكين المشروع التغريبيّ وتربية كوادره في العالم الإسلاميّ.

ويذكر غايته من الكتاب بقوله: «... وإنّما الغاية التي أهدف إليها مكافحة الشبهات العصريّة المسلّطة على مسائل تقوم عليها دعائم عقيدة الإسلام وغيره من الأديان، مع مكافحة الأشخاص المثيرين لتلك الشبهات من الغربيّين ومطبّقيها على عقائدنا من الشرقيّين... مكافحة الشبهات ومكافحة مثيريها معًا، بل ومكافحة المكامن التي ربّما يستتر المثيرون وراءها، إلى أن يتزعزع مكان الشبهات مع مكان مثيريها في قلوب الناس كائنين من كانوا»[1].

وقد انشغل الكتاب بردّ الشبهات التي وردت في كتابات الغربيّين عن الإسلام، ونقلها إلى الكتابات الإسلاميّة الشهيرة والكتّاب المسلمين، حيث نُقلت إمّا عن تعمّد أو جهل بقصد أو غير قصد، وتمحورت هذه القضايا حول الغيب بأركانه (الله، الملائكة، القيامة، المعجزات) والنبوّة (حقيقتها، متطلّباتها، ثبوتها، معجزاتها) القرآن (إعجازه، بلاغته، تحدّيه). كما تضمّن الكتاب - أيضًا - تفنيد خطأ دعاوي فصل الدين عن شؤون الحياة (القانون والاجتماع والسياسة والاقتصاد)، وأبعاد زحزحة الدين عن حياة المسلمين.

كما تضمّن الكتاب - أيضًا - موقف الإسلام من العلم، والدعاوى المضلّلة التي تُضادّ بينهما.

واهتمّ الكتاب كذلك بطرح عدد من الموضوعات التي تتعلّق مباشرة بمسألة الإلحاد؛ مثل: موقف العقل من الدين، وإثبات وجود الله بالدليل العقليّ، ومسألة كونه موجدًا للطبيعة، وإثبات وجود الله بدليله العقليّ، ومناقشة دليل العلّيّة ودحضه، ومناقشة آراء كانت وديكارت عن الله ودحضها، وموقف العلم من العقل، وموقف التجربة من الدين.

(1) م.ن، ص44.

أمّا كتاب «**أسس الفلسفة والمذهب الواقعي**»[1] للسيّد محمد حسين الطباطبائي (1904-1981م)، والشيخ مرتضى مطهّري (1919-1979م) فيعالج النزعة المادّيّة التي سادت العالم الإسلاميّ في العصر الحديث من منظار فلسفيّ، حيث يبيّن مطهّري في مقدّمة الكتاب أغراضه؛ وهي كشف كلّ انحرافات المادّيّة الجدليّة التي اجتذبت عددًا كبيرًا من الشباب الذين رأوا فيها أرفع نظام فلسفيّ للعالم، واعتبروها ثمرة مباشرة للعلوم الحديثة؛ ومن خواصها التي لا تنفكّ عنها، مع اعتقادهم بأنّ الحكمة الإلهيّة قد انتهت مرحلتها التاريخيّة.

ويبيّن الكتاب أنّ تمكّن الفلسفة المادّيّة في الغرب والانتصار الذي حقّقته؛ إنّما يرجع لعدم وجود فلسفة إلهيّة مُحكَمة البناء؛ كما في الفلسفة الإسلاميّة، فظهور المذاهب المادّيّة المتنوّعة في أوروبا له سبب رئيس؛ وهو أنّ هذه البلاد تفتقر إلى مذهب فلسفيّ عقليّ مُحكَم وقويّ ومتلائم مع العلوم الحديثة، ووجود سلسلة من العقائد السخيفة، التي يطلق عليها اسم «**الحكمة الإلهيّة**» في أوروبا قد هيّأ الجوّ وفتح الباب على مصراعيه أمام الفلسفة المادّيّة.

كما ينفي الكتاب تلك العلاقة التي حاول المادّيّون ربطها بين الثورة العلميّة وبين النزعة المادّيّة؛ وأنّهم هم الذين استطاعوا - بنبذهم ما وراء الطبيعة والغيبيّات الدينيّة - تفجير هذه الثورة العلميّة، وكذلك ينفي - أيضًا - اعتبار الفلسفة المادّيّة ذات جذور تاريخيّة، ويؤكّد أنّ تاريخها لم يتعدّ القرن الثامن عشر.

أمّا أحمد عزّت باشا (1855-1924م)، فكتب بعنوان «**الدين والعلم**»[2] في محاولة لتفنيد دعاوى تعارض الدين والعلم، ويوضّح المؤلّف سبب تأليف

(1) الطباطبائي، محمد حسين؛ مطهّري، مرتضى: أسس الفلسفة والمذهب الواقعيّ، ط2، بيروت، دار التعارف، 1988م، ص39.

(2) عزت، أحمد: الدين والعلم، ترجمة: حمزة طاهر، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1948م.

الكتاب في مقدّمته؛ وهو حالة «تنازع الملل والنحل التي كانت تعيش في الدولة العثمانيّة، ويُرى من الناشئة التي تدّعي لنفسها التنوّر، اشتداد العداء نحو الدين باسم اللادينيّ والاستمساك بنظريّات الإلحاد والإنكار».

وفي ضوء ذلك جاءت منهجيّة الكتاب وموضوعاته لتؤكِّد وتحلّل وتشرح ما يلي:

1. إثبات كون الدين لا ينافي العقل أو الحكمة، والعلم والمعرفة.
2. معرفة الله بمعرفة آثاره في الخليقة، وما تحتويه من عظمة غير محدّدة.
3. ربط المعقولات بالكونيّات في إثبات وجود الله تعالى ومعرفته.
4. الاستفادة من المكتشفات العلميّة في بيان إعجاز القرآن (والحقائق العلميّة المقطوع بصحّتها). وغيرها من الموضوعات في هذا السياق.

أمّا مصطفى الغلاييني (1885-1944م)، فكتب كتابًا بعنوان «**الإسلام روح العلم المدنيّة**»[1]، ردًّا على انتقاد اللورد كرومر المندوب البريطانيّ للاحتلال في مصر، والذي اتّهم الإسلام بمقالة طويلة خلاصتها: أنّ الإسلام دين منافٍ للمدنيّة، ولم يكن صالحًا إلا للزمن والمحيط الذي وجد فيهما، وأنّه عائقٌ للمسلمين على أن يرتقوا في سلَّم الرقيّ والتمدّن.

وقد جاء الردّ متضمّنًا مقارنة الإسلام والمسيحيّة وموقفهما من المدنيّة، ونفي علاقة الإسلام بالتأخّر من خلال الشاهد النظريّ التصوّريّ من القرآن والشاهد التاريخيّ من الحضارة الإسلاميّة؛ كما أوضح الموقف الحضاريّ للإسلام من الرقّ والمرأة والتعصّب. وأوضح كذلك أنّ المسلمين، لا الإسلام، هم الذين تأخّروا، وأنّ علوم الدين بريئة من ذلك؛ «لأنّ علوم الدين الحقيقيّة هي كلّ ما يعين على فهم الكتاب والسنّة، ويدخل في ذلك

(1) الغلاييني، مصطفى: الإسلام روح العلم والمدنية، بيروت، لا ن، 1908م.

علوم اللسان والأخلاق والسياسات بفروعها والطبّ والطبيعيّات والجغرافيا والفلك وجميع ما يسمّونه اليوم بالعلوم الكونيّة أو العصريّة، فجميعها من علوم الدين، وليس الدين قاصرًا على ما يزعمون من العبادات والمعاملات فحسب»[1].

كما قدّم أبو ريدة (1909-1991م) في كتابه «**الإيمان بالله في عصر العلم**»[2] خطّة علميّة لإثبات وجود الله؛ وفقًا لمنهج علميّ يقوم على دحض الأفكار غير العلميّة، أو التي ثبت كذبها عند التيّار الإلحاديّ. وتقوم هذه الخطّة على تفنيد الآراء التي يستند عليها الإلحاد المعاصر؛ سواء منها ما يتعلّق بالمذاهب الفلسفيّة أو الآراء التي تتعلّق بنظريّات التطوّر (النشوء والارتقاء)، ويردّ أصل الإلحاد إلى الفلسفة المادّيّة، والتي ردّ فيها المادّيّون الحياة والفكرة إلى المادّة ونشاطها، واعتبار المادّة أزليّة، كما أوضح تهافت النظريّات المثاليّة المتطرّفة التي كان لها دور في إبعاد بعض العقول عن الطريق السليم لمعرفة الله.

وهناك العديد من الكتابات التي قُدِّمت في إطار الفكر الإصلاحيّ، تحمل همَّ الدفاع عن العقيدة، ومواجهة المطاعن التي وُجِّهَت إلى المقدّسات الإسلاميّة (الله- القرآن- النبوّة)؛ مثل: كتاب «**الله**» لمؤلّفه عباس محمود العقّاد (1889-1964م)، و «**النبأ العظيم**» للشيخ محمد عبدالله درّاز (1894-1958م)، و «**قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن**» لنديم الجسر (1897-1980م)، وغيرها من الكتابات المهمّة التي يمكن العناية بتحليلها وتبسيطها والاستفادة منها على أكثر من مستوى؛ لمواجهة مطاعن الإلحاد وسدّ روافده.

(1) م.ن، ص48.
(2) أبو ريدة، محمد عبد الهادي: الإيمان بالله في عصر العلم، كتاب مجلّة الأزهر، 1437هـ.ق.

إنّ أهمّ ما قدّمته الخبرة الإصلاحيّة في الفكر الإسلاميّ الحديث، في التأسيس لمواجهة الإلحاد الفكري، ما يمكن أن نطلق عليه الكشف المبكِّر عن روافد الإلحاد في العالم بصفة عامّة وفي العالم الإسلاميّ بصفة خاصّة، هو تحديد اتّجاهات هذه الروافد الفكريّة ومنابعها والمقولات الرئيسة التي قامت عليها والروّاد لهذه الروافد وطريقة عملهم، ومن ناحية أخرى قدّمت هذه الخبرة الإصلاحيّة أسسًا لتجديد علم الكلام الإسلاميّ في قضيّة الإلحاد واللادينيّة والمذهبيّة المادّيّة وتمدّداتها في المعرفة والوجدان الإنسانيّين.

ثانيًا: تجديد أبنية علم الكلام:

علم الكلام كما يعرّفه عضد الدين الإيجي (1281-1355م) هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينيّة بإيراد الحجج ودفع الشُبه[1]. والتناول التقليدي لعلم الكلام يوضِّح أنّ مهمّته تتحدّد في ثلاث وظائف؛ هي:

1. بيان العقائد
2. إثبات العقائد
3. الإجابة عن الشبهات

إنّ التطوّر المعرفيّ للإلحاد المعاصر واعتماده على نظريّات علميّة يروّج أنّها تثبت وجهة نظره في إنكار الخالق، وما يتبع ذلك من تصوّرات بالغيب، وهو ما وقعت فيه بعض التعريفات - التي أشرنا إليها سابقًا - من اعتبار التطوّر العلميّ أحد ركائز «**الإلحاد**»؛ لأنّ هذه المقولة تتضمّن وتستبطن خطأً جوهريًّا عن الإيمان، وهو ارتباطه بالجهالة أو التخلّف العلميّ. كما أنّ طرح نظريّات علميّة معيّنة ثبت تهافتها - كالداروينية

(1) انظر: هيئة التحرير: «علم الكلام المفهوم- الماضي- الحاضر»، مجلّة قضايا إسلاميّة، بيروت، العدد 14، 2001م، ص65.

مثلاً - على أنّها تؤكِّد حالة الإنكار للأديان والغيب، يظلّ أمرًا عبثيًّا بعد كلّ التطوّرات العلميّة اللاحقة لهذه النظريّات التي أثبتت ثقافتها. لذا، كان لعلم الكلام أهمّيّة استثنائيّة في هذا العصر تتطلّب تجديدًا في أبنيته الفكريّة التي تتّصل بالمنهج والموضوعات.

إنّ أحد سبل المواجهة هي التحديد المنهجيّ الدقيق للقضايا المطروحة في مجال «**الإلحاد الفكريّ**» وتصميم خارطة نفسيّة / فكريّة للموضوعات المطروحة، وتحديد ما يدخل منها في باب الإنكار / الإلحاد / الشكّ / وأنواع كلّ من هذه الأبواب ودرجاتها، وسبل الردّ عليها، وكيفيّة الانتقال من موقف الدفاع إلى الهجوم؛ باعتبار أنّ قضايا الإلحاد وموضوعاته متهافتة في ذاتها. وهذا الأمر يتطلّب بدوره رسوخًا علميًّا وعقديًّا وفكريًّا وثقافيًّا للقضايا المثارة من ناحية، والسياقات الاجتماعيّة والنفسيّة لهذه القضايا؛ أي أنّنا بصدد بناء «**علم كلام**» جديد ينسجم في منهجه ومسائله وبنيته المعرفيّة مع التطوّرات الفكريّة والعلميّة المعاصرة.

كما أنّ الأمر يتطلّب - أيضًا - إعادة تعريف لعلم الكلام الجديد والانتقال من مجرّد «**إثبات**» و«**دفاع**» لـ /عن العقائد الدينيّة إلى البحث في صياغات جديدة للعقيدة تجمع بين الثوابت (الأصول) والمتغيّرات (المستجدّات) الواقعة، وتكون في ذاتها (عبر هذه الصياغات) قادرة / محصّنة على صدّ اختراقات الإلحاد وروافده ومغذّياته.

إنّ علم الكلام بوضعه الحالي وانشغالاته بالمسائل والقضايا التي ارتبطت بزمان ومكان معيّنَين، وسياقات اجتماعيّة وفكريّة مختلفة، اضطرّته إلى البحث في مسائل زمانها ومكانها، لم يعد قادرًا على الإيفاء بمتطلّبات العقيدة وتحدّياتها المعاصرة. فعلم الكلام في جوهره بين ثابت؛ وهو (الوحي)، ومخاطَبين؛ وهم (الناس)، والإنسان يتغيّر بتغيّر المؤثّرات الاجتماعيّة والفكريّة التي بطبيعتها تتغيّر عبر الزمن. ولذا، فإنّ

إنتاج مفاهيم جديدة ترتبط بصياغة تعاليم العقيدة يُعدّ من أهمّ وظائف علم الكلام، ومن ضرورات وجوده في هذا العصر.

كما تتجلّى أهمّيّة الدعوة لتجديد علم الكلام من أجل مواجهة الإلحاد الفكريّ في ضرورة توفير العناصر والمعطيات المعرفيّة التي لا بدّ للمتكلّم المعاصر من التزوّد بها في سبيل الدفاع عن الدين؛ مقابل الشبهات التي تستهدفه في أكثر من اتّجاه، وعلى أكثر من صعيد. وفي سبيل إنتاج معرفة دينيّة يتسنّى معها صياغة خطاب دينيّ يحاكي خصوصيّات العصر وتحوّلاته، وأيضًا حتّى يستطع هذا المتكلّم القيام بدوره من حيث هو واسطة في التبليغ بين الوحي ومخاطبيه، وخاصّة أنّ الكلام الجديد يعتبر في العصر الحاضر من أكثر وسائل التبليغ الدينيّ فاعليّة وتحقيقًا للمعنى[1].

ومن الموضوعات / المسائل الواردة في الاعتبار لتجديد أبنية علم الكلام في ضوء وظيفته التبليغيّة والإيمانيّة والحضاريّة نتناول منها ما يلي:

1. **إعادة صياغة الخطاب العقديّ (خطاب العقيدة):** فالعقيدة تشمل عالمين رئيسين، الأوّل: العالم النظريّ أو بيان التصوّرات والمفاهيم والقيم والأحكام التي تخصّ الاعتقاد ومسائله وموضوعاته، والعالم الثاني هو الجانب التطبيقيّ / العمليّ؛ لما جاء في العالم النظريّ، ومن ثمّ، فالتديّن بالعقيدة يشمل التصوّر والتصديق معًا، والإخلال بأحدهما هو إخلال بالإيمان ذاته؛ كما أكّد لنا الوحي في خطابه القرآنيّ.

وفي ضوء ذلك، فإنّنا بحاجة إلى إعادة صياغة الخطاب العقديّ من جديد؛ لتتوفّر فيه صيغة (الملاءمة) للحالة النفسيّة التي عليها وفيها المسلم المعاصر، وحالة الأمّة وضعها على سلَّم الحضارة المعاصرة، والمتغيّرات التي طرأت على الإنسانيّة من ناحية أخرى. فالاجتهاد الكلاميّ في صياغة الخطاب العقديّ الجديد يجب أن يكون هادفًا لتحقيق تلك الملاءمة،

(1) انظر: فيّاض، مقاربات في فهم الدين، م.س، ص118

وذلك من خلال وجهين اثنين؛ هما[1]:

الأوّل: تقديم العقيدة للناس بطريقة من شأنها تحقيق «**الإقناع**»، وتعميق الفهم والاقتناع لحامليها عن طريق الوراثة فقط.

الثاني: أن يكون هذا التقديم مرجعًا أصليًّا يَصدرُ عنه الفكر والسلوك، وموجّهًا للحياة في مظاهرها؛ وذلك بترتيب قضاياها؛ بحسب ما يتطلّبه مجرى الأحداث في الأمّة. وإبراز الأبعاد العمليّة لحقائقها مهما كانت مجرّدة ونظريّة، وربطها بالمشاكل الواقعيّة الناجمة في الحياة... أي مراعاة الظروف الواقعيّة المتغيّرة؛ ليقع التديّن بها على الوجه المطلوب.

والفكر الكلاميّ في ذلك مطالب بـإدراك مراحل صياغة العقيدة الإسلاميّة في أطوارها المختلفة (النشأة، النضج، الضعف)؛ ليتعرّف على أبعاد قضيّة الصياغة، ويستفيد من جوانب القوّة فيها، ويتجنّب الضعف، ويدرك المتشابهات والمتناقضات، والمبادئ التي حكمت هذه المراحل؛ وأيّ منها يمكن الاستفادة منه، وأيّ منه ينبغي تجنّبه.

فعلى سبيل المثال: مثّلت «**الواقعيّة**» مبدأً في صياغة الفكر العقديّ منذ نشأته، وكذلك في مراحل تطوّره، في الموضوع وفي المنهج؛ محكومًا بمقتضيات الأحوال الاجتماعيّة والثقافيّة، كما كان ترتيب مسائله في الظهور؛ بحسب ذلك أيضًا، وهو ما تعكسه الكتب العقديّة الأولى التي وصلتنا من القرن الثالث الهجريّ، فقد كانت المسائل تُعرَض فيها عرضًا أقرب إلى نسقها التاريخيّ، وذلك على خلاف تلك الصياغة بعد القرن الخامس، التي نجد فيها الصنعة العقليّة المنطقيّة لنظم المحصول الكلاميّ في سياق مدرسيّ[2].

(1) انظر: النجّار، عبد المجيد: في فقه التديّن فهمًا وتنزيلًا، الكويت، كتاب الأمّة، العدد 23، ديسمبر 1989م، ص21.

(2) النجّار، في فقه التديّن، م.س، ص29.

ومن ثمّ، فينبغي تحديد أهمّ المبادئ التي يمكن أن تُصاغ فيها العقيدة وتقدَّم زادًا تربويًّا وثقافيًّا للناس (المؤمنين)، أو المبادئ التي تحكم توجّه الخطاب العقديّ عند مواجهة غير المؤمنين، بالإضافة إلى ضرورة تضمينها المعارف التي تخصّ الإلحاد المعاصر من ناحية، والتطوّر العلميّ من ناحية أخرى؛ باعتباره يشكِّل أحد مصادر التأثير المعاصرة.

2. **التحليل الإبستمولجي للحضارة الغربيّة المعاصرة:** من الأهمّيّة بمكان إدراك الأبعاد المعرفيّة المتعدّدة للحضارة الغربيّة المعاصرة صاحبة التأثير الأكثر فاعليّة على الإنسان المعاصر، وآثار هذه الأبعاد على الدين والإنسان، أمّا موضوعات التحليل الإبستمولجي، فتشمل (سياقات النشأة - الاتّجاهات الفكريّة - المفاهيم الجديدة - القيم الحاكمة -الموقف من الدين - فلسفة العلم ومساراتها - الآداب والفنون واتّجاهاتها)؛ بحيث يتكوّن لدى العلم الكلاميّ تصوّر يتّسم بالدقّة والشمول والموضوعيّة عن البيئة المعاصرة للعقيدة وجذور هذه البيئة. وما يترتّب على ذلك من النظر الشموليّ لإشكاليّات الدين في العالم المعاصر.

فالنزعة الغربيّة هاجمت الإسلام بأساليب ومناهج - يبدو ظاهرها علميّ- من خلال اتّجاهات الاستشراق والتغريب اللذين وضعا مقدّسات الإسلام في مراصد الطعن، وحاولوا سحب مفهوم «**الدين**» بمعناه الكنسيّ في العصور الوسطى على الإسلام، وخرجوا بنتيجة مزعومة لها وجهين متماثلين؛ هما: (الإسلام سبب جمود المسلمين وتخلّفهم)، و(يجب ترك الإسلام والتخلّي عنه ضرورة لتقدّم المسلمين). إنّ مثل هذه الشبهات وغيرها، التي أدّت إلى نزعات (الإلحاد الفكريّ) في مجتمعاتنا، لا يمكن إهمالها أو التعامل معها بمنطق ضعيف وإجابات سطحيّة لا تُقنِع، بل تزيد الشبهة أحيانًا.

إنّ مواجهة القضايا المثارة الخاصّة بالإلحاد في مجتمعنا الإسلاميّ؛ مهما كانت ضآلتها من الناحية الكمّيّة، لا بدّ من طرحها على طاولة الحوار الكلاميّ

الجديد؛ لأنّه يكمن خلفها طرح فكريّ، حتّى وإنْ كانت نشأته خارج الحدود الإسلاميّة، لكنّه ينبغي تناوله وتحليله بالعمق والخبرة المطروحتين أنفسهما.

إنّ أهمّ ما قُدِّم في هذا المجال - تحليل المعرفة الغربيّة المعاصرة- ما سطّره المفكّر عبد الوهاب المسيري (1938-2008م) في مقدّمات موسوعته التحليليّة، وفكرة النماذج المعرفيّة، وكتاباته عن «**الحداثة وما بعد الحداثة**»، و «**دفاع عن الإنسان**»، و «**الإنسان من منظور غربيّ**»، و«**الفلسفة المادّيّة وتفكيك الإنسان**»، و «**العلمانيّة والحداثة والعولمة**»، والإطار النظريّ التحليليّ في «**موسوعة اليهود واليهوديّة والصهيونيّة**».

3. **الدين والعلم:** من القضايا التي ينبغي أن تدخل في الإطار الموضوعيّ لعلم الكلام الجديد: قضيّة «**الدين والعلم**»، فمن المؤكّد أنّ حالة العلم التي كانت سائدة عند نشأة علم الكلام متباينة عن الحالة المعاصرة للعلم؛ كما أنّ العلوم في العصور الوسطى ارتبطت بالنضج الإسلاميّ، وتمدّد الإيمان في الفتوحات الإسلاميّة، بينما ارتبطت حالة العلم / العلوم المعاصرة بالترويج معها للإلحاد ومحاولة نسبة الإلحاد إلى العلم الحديث.

إنّ مسألة العلم والدين لها أبعاد واسعة، أحيانًا تبحث في الصلة بين العلوم التجريبيّة والدين (كقضيّة خلق الإنسان والداروينيّة)، وتارة تقوم فلسفة تدّعي العلمويّة؛ بوصفها منافسًا للدين (كما هو الحال بالنسبة للمادّيّة العلميّة)، وأحيانًا تطرح في إطار قضيّة العلم والدين، أيديولوجيا وأخلاق معيّنة، على أساس من العلوم الحديثة (كالعلمانيّة مثلًا)[1].

إنّ السؤال الكلاميّ الذي ينبغي تجديد الإجابة عليه في مثل قضيّة العلم والدين هو: هل يتعارض العلم والدين؟ وعلى الرغم من أنّ السؤال أجيب عليه في بحوث وصفيّة عديدة، لكنّ القضيّة ما زالت تطرح مع

(1) قراملكي، مسائل علم الكلام الجديد، ترجمة حيدر نجف، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، بيروت، العددان: 3 - 4، 2001، ص206.

تطوّر الوقت وظهور تيّارات الحداثة وما بعدها، والعولمة وما بعدها؛ بصور أكثر تطوّرًا إلى: لماذا حلّ العلم مكان الدين في الحضارة المعاصرة؟

فهذه المسألة تفرض على الكلام الجديد: تحديد نشأة القضيّة، وطبيعة (التعارض) وأشكاله، ومساراته، وحقيقته، ولماذا أثيرت هذه القضية؟ ومتى أثيرت؟ وحقّانيّة إثارتها أو عدالة السؤال؟ وطبيعة العلم وطبيعة الدين اللذين يتعارضا؟ وما هو موقع الإسلام (بوصفه دينًا) من هذه التساؤلات، ومدى اتّفاق الإسلام مع الأديان الأخرى أو اختلافه عنها في الإجابة؟

وهناك وجه آخر لهذه القضيّة؛ وهو (الإيمان والعلم)؛ وهو من ذات القضية، ويُعدّ ما طرحه وحيد الدين خان (1925م) في (الإسلام يتحدّى)[1] مدخلًا منهجيًّا رائدًا، يبحث فيه كلّ الآراء المعاصرة عن المسألة، ويقدِّم الخطاب بلغة العصر (العلم) نفسها، أو كما يعبّر عنه العنوان الفرعيّ (مدخل علميّ إلى الإيمان)، الذي ناقش فيه قضايا الإلحاد المعاصرة، وزْعم ارتباطها بالعلم.

ويطرح (خان) منهجيّته - التي ينبغي أن تتضمّنها حركة تجديد أبنية علم الكلام المعاصر - في هذا الخطاب الكلاميّ الجديد للردّ على الإلحاد المعاصر- ويذكر في ذلك[2]:

أ. أنّ الطريقة التي يتّبعها الكُتَّاب للدفاع عن الدين هي ذات وجهين: فكريّة وتجريبيّة، أو فلسفيّة وعلميّة، وقد راعى المؤلّف الطريقة الثانية؛ وهي التجريبيّة العلميّة... حيث إنّ مكتبتنا تزخر بمجلّدات ضخمة من الكتب التي وضعت على المنهج الأوّل، في حين يوجد نقص شديد في الكتب من المنهج الثاني.

(1) انظر: خان، وحيد الدين: الإسلام يتحدّى.. مدخل علميّ إلى الإيمان، ترجمة: ظفر الإسلام خان، تقديم: عبد الصبور شاهين، القاهرة، المختار الإسلاميّ، ص20.
(2) انظر: م.ن، ص27-30 (بتصرّف).

ب. إنّ المضمار الفسيح الذي هيّأته الدراسات العلميّة الحديثة لإثبات الدين، هو تصديق لما جاء في القرآن: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾[1]. وهذا الكتاب محاولة لتوظيف الإمكانات [التطوّرات] الجديدة لصالح الدين بطريقة منظَّمة.

ج. إنّ إثبات أحقّيّة الدين [أي الإسلام] أمام الفكر المادّيّ يكون بأسلوبين: أولهما: أنْ نستدلّ بأنّ الدين ليس (مادّيًّا)، بل فوق المادّة، وبناءً على ذلك ليس للعلوم المادّيّة أن تعترض طريق الدين. وقد أصبح هذا الاستدلال في غاية القوّة، حيث إنّ العلماء قد اعترفوا «بأنّ العلوم المادّيّة لا تعطي إلا علمًا جزئيًّا عن الحقائق».. أي أنّ هناك حقائق أخرى لا تستطيع هذه العلوم الوصول إليها؛ ومنها حقائق الدين.. والطريقة الأخرى لإثبات حقائق الدين، فهي اتّباع الطرق العلميّة نفسها التي يتّبعها العلماء الملحدون لإثبات معتقداتهم.. حيث إنّه لا بدّ من اتّباع أساليب الاستدلال نفسها التي يستغلّها الملحدون؛ حتّى يمكن إثبات أحقّيّة الدين.

د. إنّ هذا الكتاب لا يستهدف تفسير الدين، بل هو وليد ضرورة كلاميّة للردّ على مَنْ يزعمون أنّ الدين خدعة وأضحوكة وتخدير للشعوب، فكلّما أردنا مواجهة الأسئلة التي تثار ضدّ الدين كان لا بدّ من تغيير لهجتنا ولغتنا، بتلك التي يستغلّها المنكرون؛ حتّى نستطيع أن نقف أمام تلك العواصف، كما أنّ طريقة الكلام وأسلوبه قد تغيّرا بتغيّر الزمن؛ ولذلك علينا أن نأتي بعلم كلام جديد لمواجهة تحدّي العصر الحديث.

ومن القضايا التي يمكن لعلم الكلام الجديد توظيف بعض قضايا العلم وإشكاليّات وفلسفته لطرح المسألة الإلهيّة: قضيّة الإشكالية العلميّة

(1) سورة النمل، الآية 93.

وحكمة الخَلْق، والمقصود بذلك البحث عن الحكمة من مظاهر الخَلْق؛ خاصّة تلك التي تتعلّق بالشرور؛ ومن بينها: الصراع العامّ بين الكائنات. إذ يلاحظ أنّ هذه القضيّة هي الفجوة التي يتسلّل منها رجال الإلحاد واللا أدريّة، حيث يعدّون الإيمان بالله ليس فيه فائدة، إذا أنّه على فرض وجوده؛ إمّا أن يكون غير قادر على إزالة الشرّ من العالم، وإمّا أنّه إله منزوعة عنه الرحمة والشفقة. وهي شبهة تُطرَح على الدوام في البحوث التي تتعلّق بفلسفة الدين.

إنّ هذه الإشكاليّة تدخل في الإطار العلميّ لمبدأ أو قانون السببيّة، وإذا كان الإنسان لا زال عاجزًا عن أنْ يتوصّل إلى إدراك مغزاها وحكمتها؛ خصوصًا في ما يتعلّق بالدراسات البيولوجيّة وعلاقات الصراع الخاصّة في الكائنات الحيّة، فإنّ عدم الإدراك لا يعني تنازله عن مبدأ السببيّة الذي يمثّل أصل تفسيريّ رئيس في النظريّات العلميّة المعاصرة.. وإنّما ذلك يبعث على البحث والتنقيب؛ وذلك انطلاقًا من الإقرار بكون النظام الدقيق الدالّ على وجود الخالق العظيم لا يسمح وجدانًا للفرض القائل بوجود ثغرة في خلقه تتّسق مع العبثيّة أو غياب الحكمة[1][2].

4. **الوعي النقديّ لفلسفة العلم في الحضارة الحديثة:** إذا كانت دعاوى

(1) انظر: محمد، يحيى: «علم الكلام والكلام الجديد: الهويّة والوظيفة»، مجلّة قضايا إسلاميّة معاصرة، العدد 14، م.ن، ص199.

(2) ويبدو أنّ الملحدين قد انتبهوا إلى مثل هذه المقدّمات، فكتبوا بعنوان «في: نقد الحجّة السببيّة» في محاولة منهم لهدم هذه المقدّمة الإطاريّة؛ لإثبات وجود إله. فشرعوا يفنّدون مسائل الحدس الفطريّ على الاعتقاد في «السببيّة، ويرون أنّ الحجّة السببيّة تقوم على التالي: كلّ ما بدأ أنْ يوجد، له مسبّب. 1. الكون قد بدأ بالوجود. 2. لذا، فالكون له مسبّب. 3. الله هو التفسير الأفضل لهذا السبب. 4. الله له وجود وتّحكم في خلق الكون». ويعلّقون على هذا الطرح بقولهم: «.. نعم إنّه الحدس الفطريّ الذي يناصرونه [أي أهل الإيمان] ويدفعون به ليبرّروا النقطة رقم (1) بأنّ كلّ ما بدأ أن يوجد، له مسبّب؛ إذ لا يوجد ما يبرّر النقطة رقم (1) سوى الحدث الفطريّ، وبذلك يعترف معظم من يطرح الحجّة السببيّة، فمنذ البداية إذ نرى أنّ الحجّة السببيّة الكلاميّة مبنيّة على أساس هشّ جدًّا لطالما أشبعه التاريخ هزائم متلاحقة. والشاهد من هذا النقل أن نتبيّن أنّ هناك علم كلام للإلحاد - أيضًا يقوم على رصد كلّ ما هو مضادّ لأفكاره وثوابته ويعمل على نقضها ونقدها بهدف هدم الأبنية الفكريّة لعلم الكلام الدينيّ». (النجفي: في نقد الحجّة السببيّة، ج1، مجلّة الملحدين العرب، (7)، إبريل 2014م، ص144).

الإلحاد المعاصر - التي تمتدّ نزعاتها في بعض فضاءنا الإسلاميّ - تزعم أنّها تعتمد على العلم المعاصر الذي حلَّ بديلاً عن الدين، فإنّ درس فلسفة العلم الغربيّ ونقدها وتحليلها من منظار العلم ذاته وتطوّره من ناحية، ومن منظار الرؤية الكونيّة التوحيديّة من ناحية أخرى، يُعد أمرًا مهمًّا للداخل الإسلاميّ، ولسدّ ثغرات الثقافة الإسلاميّة المعاصرة التي تشعر بالدونيّة والنقص أمام ازدهار التطوّرات العلميّة في الحضارة الغربيّة المعاصرة[1].

ومن ثمّ فمن الضروري أن تخضع الأسس الفلسفيّة للعلم الحديث إلى التقويم في ضوء الرؤية الإسلاميّة، ليصبح من الممكن توعية المسلمين بالنظام القيميّ الذي يتشكّل منه بالتحديد... ولا يتناول هذا النقد الشكل الراهن للعلم الحديث فحسب، بل يشمل كذلك ميزة يفتقدها هذا العلم. إذ أنّ العلم الحديث لا يتمثّل فقط بعلم نظام الطبيعة في دائرته المشروعة؛ وإنّما بعلم الطبيعة الذي تنحصر مشروعيّته في دائرة فرضيّاته عن طبيعة موضوع العلم والذهن الذي يمارسه[2].

5. **تشغيل منهجيّة الاستقراء لإثبات أصول الدين:** وتتعيّن الوظيفة هنا ببحوث أصول الدين وإثباتها في ضوء «**الشبهات الفلسفيّة والعلميّة الحديثة**»، ومن أهمّ المعالجات التي قُدِّمت في هذا المجال: معالجة السيّد محمد باقر الصدر (1931 - 1979م) في الأسس المنطقيّة للاستقراء؛ والدراسة كما جاء في عنوانها الفرعي: دراسة للاستقراء، تستهدف اكتشاف الأساس المنطقيّ المشترك للعلوم الطبيعيّة وللإيمان بالله تعالى، وهذه الدراسة الرائدة تمثّل اتّجاهًا جديدًا في نظريّة

(1) انظر في هذا النقد:
الفاروقي، إسماعيل: صياغة العلوم الاجتماعيّة صياغة إسلاميّة، فيرجينيا، المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، 1989م.

(2) انظر: نصر، حسين: «الرؤية الكونيّة التوحيديّة والعلم الحديث»، مجلّة قضايا إسلاميّة معاصرة، بيروت، العدد 18، 2002م، ص191.

المعرفة يختلف عن كلّ من الاتّجاهين الرئيسين: الاتّجاه العقليّ، والاتّجاه التجريبيّ؛ من أجل إعادة بناء نظريّة المعرفة على أساس جديد أسماه الصدر «**المذهب الذاتيّ**»[1].

ويختتم هذه الدراسة بقوله: «إنّ الأسس المنطقيّة التي تقوم عليها كلّ الاستدلالات العلميّة المستمدّة من الملاحظة والتجربة، هي نفس الأسس التي يقوم عليها الاستدلال على إثبات الصانع المدبّر لهذا العالم، عن طريق ما يتّصف به العالم من مظاهر الحكمة والتدبير... ومن ثمّ فالإنسان بين أمرين: فهو إمّا أن يرفض الاستدلال العلميّ ككلّ، وإمّا يقبل الاستدلال العلميّ ويعطي للاستدلال الاستقرائيّ على إثبات الصانع نفس القيمة التي يمنحها للاستدلال العلميّ... فالعلم والإيمان مرتبطان في أساسهما المنطقيّ الاستقرائيّ، ولا يمكن - من وجهة النظر المنطقيّة للاستقراء - الفصل بينهما»[2].

ثالثًا: التربيّة العقديّة:

إنّ الله -تعالى- حظر على كلّ ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء؛ إلا ببرهان ينتهي في مقدّماته إلى حكم الحسّ وما جاوره من البديهيّات التي لا تنقص عنه في الوضوح، بل قد تعلوه[3].

هذه السنّة الإلهية هي المدخل الرئيس لنمط من التربية يظلّ في حالة معرفة دائمة وحيَّة بالإيمان والعقائد الصادرة عنه، وهذه السنّة تتضمّن ثلاثة أساسيّات، الأوّل: الحرّيّة، والثاني: العقل، والثالث: الحكم الذي يصل إليه الإنسان عبر الإرادة الوجدانيّة التي تنعقد على مسألة الاعتقاد. والتربيّة / التنشئة على الإيمان/ أصول العقائد، وما تتضمّنه من عمليّات: التعريف، التبيين، المقارنة، الاستنتاج، والشعور، والتساؤل، والجدل... وغير ذلك ممّا

(1) الصدر، محمد باقر: الأسس المنطقيّة للاستقراء، قم، 1426هـ.ق.
(2) م.ن، ص578.
(3) انظر: عبده، محمد: رسالة التوحيد، تقديم: محمد عمارة، القاهرة، دار الشروق، 1994م، ص137.

يقع في نطاق المؤسّسة التربويّة الأولى للتربية العقديّة؛ وهي «**الأسرة**»؛ كما عبّر عن ذلك الحديث الشريف: «**... فأهله يهوّدانه أو يمجّسانه أو ينصّرانه**». وفي الوقت الحاضر أو يتركانه «**للإلحاد**» بأوسع معانيه، أو لأيّ من سبله من زعزعة الإيمان، أو اضطراب القيم والمفاهيم الإيمانيّة في نفس الفرد.

إنّ موجات الإلحاد التي تأسّست في العصر الحديث وامتدّ تأثيرها إلى الوقت الحاضر تختلف في بنيتها ومساراتها عن الإلحاد في العصور القديمة، على الرغم من اتّفاقهما في الغاية التي يهدفون إليها؛ وهي إنكار كلّ الغيبيّات جملة، ونفي خضوع الكون بكلّ ما فيه لإله لا يُرَى بالعين المجرّدة.

وإنّ أوّل بيئة ينمو فيها الإلحاد هي البيئة التي يسود فيها الجهل، ويغيب عنها القلب، فكتل الجماهير التي لا تتلقّى تربية وتغذية روحيّة وقلبيّة ستقع إنْ عاجلًا أم آجلًا في براثن الإلحاد.. وإذا لم تبذل الأمّة عناية خاصّة في تعليم أفرادها ضرورات الإيمان، ولم تظهر الحسّاسيّة اللازمة في هذا الأمر، وتركت أفرادها في ظلام الجهل؛ فإنّ هؤلاء الأفراد يكونون قد دُفِعُوا لتقبّل كلّ إيحاء معروض عليهم.

ويتجلّى الإلحاد في بادئ الأمر باللامبالاة تجاه أسس الإيمان وعدم الاهتمام. ومثل هذا السلوك الذي يتّسم بحرّيّة التفكير؛ ما أن يجد أيّ إشارة صغيرة تعين على الإنكار وعلى الإلحاد حتّى ينمو ويزداد، مع أنّ الإلحاد لا يستند إلى أيّ سبب علميّ. ولكنّ إهمال معيّن أو غفلة معيّنة أو تقويم خاطئ قد يولِّد الإلحاد[1].

إنّ النظريّات العلميّة، ولا سيّما نظريّة «**التطوّر والتكامل**» التي درست في المعاهد العلميّة الإسلاميّة على أنّها حقائق ثابتة، أصبحت وفق التطوّرات العلميّة الحديثة وتطوّر علم الجينات، غير ذات قيمة علميّة،

(1) انظر: كولن، أسئلة العصر المحيّرة، م.س، ص23.

مع أنّها ما زالت نقاط ارتكاز لأسباب الإلحاد بين الشباب[1]؛ وذلك للفراغ الفكريّ والثقافيّ الذي يعاني منه الناشئة والشباب، وفراغ الوجدان والعقل من معارف الإيمان.

فالإلحاد - في ضوء الفحص العلميّ لنظريّاته - لا يُعدّ الآن إلا انحرافًا نفسيًّا وعنادًا وفكرًا جاهزًا من غير تفكير ومزاجًا طفوليًّا... وهنا تبدو أهمّيّة التعبئة العلميّة والتربويّة لنشر المعارف الصحيحة، وأن نعتبر هذه التعبئة وظيفة مقدَّسة يجب أن نؤدِّي إليها حقّها[2].

إنّ هذا الأمر يؤكِّد ضرورة التنشئة الدينيّة العلميّة الواعية، التي تبدأ من الأسرة، بطرح خطّة تربويّة علميّة مغايرة للتنشئة على الإيمان الواعي، وتحويل الخطاب الآمر للجوانب الدينيّة، ولا سيّما ما يتعلّق بأركان الإيمان إلى خطاب عقليّ علميّ يُشبِع حاجة الشباب المعاصر الذي وجد نفسه غارقًا في كلّ هذه التطوّرات العلميّة التي تتنكّر في أغلبها من الدين، أو قامت على أسس مادّيّة تنزع إلى إهمال الدين ومهاجمته.

وضرورة أنّ يجمع المرشدون التربويّون -الذين يقومون على تربية الطفولة والناشئة- في إعدادهم بين: العلم والعاطفة، والعقل والقلب، وإدراك خصائص الطبيعة البشريّة ونظريّات علم النفس، والفروق الفرديّة، والدوافع والاهتمامات والاتّجاهات، وطبيعة الانفعالات الإنسانيّة والمثيرات، وكذلك وسائل الإلحاد المعاصرة، وخصائص تلك الوسائل، وكيفيّة التغلّب عليها في التعامل مع الشباب والمراهقة.

إنّ تطوير الدرس الإيمانيّ المعاصر ينبغي أن يرتكز على ثلاثة ركائز؛ هي: العقل، والعلم، والوجدان. وهذه الثلاثة تواجه الدرس الإيمانيّ التقليديّ الذي اعتمد على الوراثة، والتلفيق، والطاعة، فنحن بصدد بناء

(1) انظر: م.ن، ص35.
(2) انظر: م.ن، ص25.

شخصيّة جديدة تستطيع مواجهة عواصف التيّارات الماديّة المعاصرة بكلّ ما تحمله من إفرازات وآثار؛ مثل: الإلحاد، والإباحيّة، والانحلال الأخلاقيّ، والتحلّل الاجتماعيّ.

لقد نجح روّاد الثورة العلميّة ومفكّرو التنوير في إرساء معادلة تقول: إنّ الإيمان والعقل هما شيئان متناقضان لا يلتقيان؛ فحيث يحضر أحدهما يغيب الآخر. ونجحوا في حصر عمل العقل بالعلوم الطبيعيّة التي أعطوها وحدها القدرة على كشف حقيقة الوجود الماديّ، وفي حصر الإيمان بمجال الظنون والآراء الخاصّة التي يرتبط بها الناس من خلال مشاعرهم اللاعقلانيّة. ونرى اليوم أنّ كثيرًا من القائمين على الأديان أنفسهم قد قبلوا هذه المعادلة بعد أن ترسّخت بمرور الوقت من خلال المناهج التعليميّة الحديثة والتقدّم المطّرد للاكتشافات العلميّة والتقنيّة التي لم تزَل تبهر العالم بإنجازاتها الكبيرة[1].

وقد خضع النظام التعليميّ بالجملة لهذه النظرة إلى العقل والإيمان، فعزلوا التعليم الدينيّ في حصّة دراسيّة منفصلة عن باقي العلوم الرياضيّة والطبيعيّة، وهي عزلة مقصودة من أجل بناء ازدواجيّة في الشخصيّة المسلمة، فترى الدين على الأقلّ منعزلًا بصورة - تبدو - طبيعيّة عن الحياة. ومن ثمّ تخفَّف الجدول الدراسيّ من التعليم الدينيّ، فأصبح في ذيل القائمة الدراسيّة؛ من حيث الكم والكيف والأهمّيّة.

لقد استجابت أنظمتنا التعليميّة إلى خلق شخصيّة لا دينيّة؛ إمّا بطريقة مقنعة، حيث يقدَّم الدين بصورة هزيلة غير مقنعة وغير جادّة؛ بما يؤثّر في التكوين التربويّ الأساس للشخصيّة المسلمة، أو يتمّ إهماله كلّيّة من قِبَل المؤسّسات التربويّة؛ كما يحدث في كثير من الجامعات العربيّة التي يختفي فيها الدين كلّيّة؛ إلا من الكلّيّات / الجامعات ذات الطابع الدينيّ

(1) انظر: أبو زكي، سعيد: «العقل دينًا.. قراءة تحليليّة في الخطاب القرآنيّ والتراث الإسلاميّ عن علاقة العقل بالدين والتحقّق الروحيّ»، المشرق الرقميّة، مجلة إلكترونيّة، العدد 10، حزيران 2017م.

التقليديّ المحض؛ كالأزهر، والزيتونة؛ على سبيل المثال.

ومن ناحية أخرى، فإنّ الناشئة ينظرون إلى الداخل الإسلاميّ بصورة فاحصة تبرز «**الدونيّة**» التي تسيطر على نظرة أبنائه إلى أنفسهم؛ أي حالة (هزيمة الأمّة المؤمنة) في مقابل (الانتصار والتفوّق للبلاد التي تتمركز فيها بؤر الإلحاد العلميّ وتنطلق منه).

ومن ثمّ، فإنّ تطوير الدرس الإيمانيّ المعاصر يلقى عليه عبء آخر؛ وهو كيفيّة الفصل أو إثبات التباين بين الدين وبين واقع المتديّنين به من ناحية، ومن ناحية أخرى يواجه إشكاليّة بعث الطاقة الإيمانيّة للدين في نفوس هؤلاء المتديّنين ومجتمعاتهم؛ بهدف تطوير تلك المجتمعات، وميلاد التطوّرات العلميّة والحضاريّة من بين تلك الطاقة الإيمانيّة.

إنّ التربية العقديّة - أيضًا - تستعيد اللحمة بين الدين والدنيا؛ كما في الجانب الاجتماعيّ للدين، أو آثار التوحيد في حياة الفرد والمجتمع. وكيف إنّ الدين يقيم في ظلّه نظم اجتماعيّة تسعى لتحقيق الأخلاقيّة الإلهيّة التي تحفظ الفرد والجماعة من حالات التحلّل والانحلال التي شهدتها الحضارة الغربيّة، في ظلّ ازدهار الاتّجاهات المادّيّة في الأخلاق والاجتماع.

لذا، على التربية العقديّة أن توجِّه العقل الإنسانيّ للاستفادة من مواهبه أو إمكاناته التي منحها الله له في التعرّف العلميّ عليه من الناحية النظريّة والتطبيقيّة. وهنا يجب تحفيز العقل على ممارسة الاجتهاد في النظر إلى شؤون الدنيا.

والتربية العقديّة تهتمّ - أيضًا- بتقديم المعارف الدينيّة بصورة عقليّة؛ أي ربط إدراك حقائق الوجود عن طريق العقل؛ انطلاقًا من الحثّ القرآنيّ على ذلك: ﴿ٱنظُرُواْ﴾، و﴿سِيرُواْ﴾، و﴿تَعۡقِلُونَ﴾، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ أي الانطلاق إلى الكتاب المنظور من خلال حفز الكتاب المسطور.

ونقدم في ما يلي خطّة عامة للتربية العقديّة في ظلّ سياقات مواجهة الإلحاد الفكريّ ومنابعه:

1. أهداف التربية العقديّة:

إنّ أهداف التربية العقديّة لا بدّ أن تُصاغ في الأسرة والمؤسّسات التربويّة في ضوء تحقيق تحوّلات للتربية التقليديّة القائمة؛ وهي:

- التحوّل من الوراثة إلى الاختيار؛ عبر العقل، والدليل، والبرهان.
- التحوّل من التلقين إلى الاقتناع؛ عبر المناقشة، والتساؤل، والردّ، والجدل المنهجيّ.
- التحوّل من الوعظ إلى المعرفة؛ عبر شموليّة الخطاب التربويّ للحاظ التفكير العلميّ والجانب المعرفيّ.
- التحوّل من الاستظهار إلى التفقّه والتدبّر؛ عبر خارطة تدبّريّة لآيات القرآن التي تتوجّه إلى الطبيعة والنفس.

2. مقوّمات التربيّة العقديّة:

ترتكز التربية العقديّة على أربعة أضلاع متساوية في مقوّمات بنائها؛ وهي:

- الفطرة أو المنهج الفطريّ.
- النظر والتأمّل العقليّ وقانون السببيّة.
- الحسّ والمشاهدة والتجربة.
- العلم وتطوّره واكتشافاته.

3. مرجعيّة التربيّة العقديّة ومنهجها:

تستمدّ التربية العقديّة مضامينها الرئيسة في التناول التربويّ والثقافيّ ممّا يلي:

- القرآن.
- السنّة النبويّة.
- الكون.
- المناهج المقارنة (بين الإلحاد والأديان والإسلام) في ضوء العقل والعلم.

4. المبادئ الأساسيّة:

تعتمد التربية العقديّة على مبادئ ثلاثة لتقويض النظرة التقليديّة القائمة، والدفع بالتجديد التربويّ العقديّ، وهذه المبادئ؛ هي:

- لا تقليد في الاعتقاد.
- الشك ليس كفرًا، بل رحلة إلى اليقين.
- الحرّيّة هي أساس الإيمان.

5. المعرفة:

أمّا الجانب المعرفيّ في التربية العقديّة الجديدة، فيتضمّن:

- تيسير الكتابات في الردّ على الشبهات وإتاحتها في مكتبات الناشئة والمدارس والجامعات.
- بناء جسور التواصل الفكريّ بين الشباب والعلماء والمفكّرين.
- ملاحظة التطوّر المعرفيّ في مجال الأفكار؛ خصوصًا التي تتعلّق أو تؤثّر في الرؤية الدينيّة والشعور الدينيّ للإنسان.
- تحليل / ممارسة الآثـار الاجتماعيّة للإيمان في الجانب الأخلاقيّ والاجتماعيّ بصفة عامّة.
- القراءة الواعية للوسائل المعاصرة للإلحاد والردّ عليها من منطلق وعي علميّ نقديّ، لا وعظيّ خطابيّ تقليديّ.
- تقاطع دروس التربية الدينيّة في المؤسّسات التعليميّة مع دروس العلوم الطبيعيّة وعدم عزلها عن باقي الحصص الدراسيّة.
- تيسير الكتابات الإسلاميّة الرائدة التي تناولت الإسلام بشكل تحليلي وعلاقته بالحياة، والقوانين والعلم؛ ومنها: علي عزّت بيجوفيتش «**الإسلام بين الشرق والغرب**»، ووحيد الدين خان «**الإسلام يتحدّى**»، ومحمد إقبال اللاهوري «**تجديد الفكر الدينيّ**»، ومراد هوفمان «**الإسلام**

كبديل»، ومالك بن نبي «**الظاهرة القرآنيّة**». وتبسيط الأفكار الواردة فيها بشكل يلائم الناشئة وطلاب الجامعات والشباب المسلم بصفة عامّة.

- رصد آراء الغربيّين [المنصفين] في القرآن والإسلام وجمعها وتبسيطها.

6. تصميم برنامج قرآنيّ:

يُعدّ واقع الدرس القرآنيّ في الأمّة واقعًا متخلّفًا عن القرآن ذاته، حيث ينحسر هذا الدرس في الترويج للحفظ والاستظهار؛ بعيدًا عن مهمّة المكلَّف الأساس في التعامل معه؛ وهي «**ليدّبّروا**»؛ فوظيفة التدبّر، وما يتعلّق بها من الفهم والفقه والتفقّه والتعقّل والتبصّر غائبة بشكل يكاد كلّيًّا في التعامل الجمعيّ للأمّة.

والقرآن يمثّل المرجعيّة الوحيدة ذات الكلام المقدّس في الإسلام، والتي من شأنها أن تجيب المسلمين عن أسئلة الوجود والماهيّة والمصير، وغياب التعامل الراشد مع هذا الكتاب «**المرجع للإيمان**» يؤدّي إلى خللٍ كبير في بناء شخصيّة المسلم.

وبما أنّ القرآن يوفّر كلّيّات قواعد التفكير والهداية والرشاد للإنسان، فإنّه يحقّق بهم مناخًا علميًّا يدفع المسلم المؤمن به إلى أن ينظّم تفكيره في ما يتّصل بعلاقته بالكون وعناصره ومكوّناته من ناحية، وبتوفير خلفيّة فكريّة وفلسفيّة تساعده في بناء أيديولوجيّة خاصّة به، وبصفته مؤمن بكتاب مقدّس يجمع ما جاء في الكتب السابقة ومهيمنًا عليها «**ومهيمن عليه**».

ونقترح هنا تصميم برنامج قرآنيّ يقوم على توفير ما يلي:

- الانفتاح العقليّ.
- مبدأ الحوار والتساؤل.

- مبدأ الجدل المنهجيّ.
- تأطير المعرفة المادّيّة والمعنويّة والارتباط بينهما.
- الدليل والبرهان.
- نبذ التقليد.
- اعتماد خطوات المنهج العلميّ للوصول إلى الحقيقة.
- بناء جسر معرفيّ يصل بين القرآن والكون في ذهن المخاطب.
- الأبعاد الاجتماعيّة- الأخلاقيّة للوحي.

7. خصائص المرشد التربويّ في التعامل مع حالات الإلحاد الفكريّ:

من الضروريّ في تصميم برنامج للتربيّة العقديّة أن يتضمّن جانب علاجيّ -أيضًا- يقوم به المرشدون التربويّون (الأسرة - أو متخصّصون) لمعالجة اضطراب الإيمان أو نزعات الإلحاد التي يمكن أن تظهر عند الطفولة أو الناشئة، ويجب أن يتوافر في المرشد التربويّ مجموعة من الصفات/القدرات الفنّيّة الأساسيّة؛ منها[1]:

- معرفة نوع إنكار المخاطب، وعمّا إذا كان إنكارًا كلّيًّا أم إنكارًا لبعض أركان الدين؛ لكي يتمّ التركيز اللازم على مقصد التعامل المطلوب، ويوفّر الوقت والجهد اللازمين لها.

- تحديد سمات المخاطب الانفعاليّة والفكريّة والثقافيّة؛ لأنّ هذه الأبعاد ضروريّة في تحديد شكل التعامل وطبيعته وأسلوبه.

- التوافق اللغويّ: من المهمّ - أيضًا - استعمال اللغة التي يفهمها المخاطب، فاللغة وعاء الفكر الذي يقدِّمه المرشد، والذي يجب أن يصل إلى المخاطب؛ لتجنّب تشوّه الفكرة المقدَّمة.

- الوعي بالقضيّة أو الفكرة التي نريد إيصالها وإفهامها للمخاطب،

(1) انظر: كولن، أسئلة العصر المحيّرة، م.س، ص68.

واستخدام الإقناع العقليّ والعلميّ، بالإضافة إلى الجانب العاطفيّ الذي هو بالتأكيد جزء لا ينفصل عن طبيعة الشخصيّة الإنسانيّة في كلّ أحوالها الإيمانيّة أو الإنكاريّة.

- الرغبة في الوصول إلى الحقيقة أو الهداية أعلى من الرغبة في مجرّد الانتصار أو إقحام المخاطب.

- الاطّـلاع على الوسائل والآليّات المعاصرة للإلحاد الفكريّ ومراكزه ومراصده؛ لدحض ما تقدّمه هذه المراكز بصورة علميّة أيضًا.

رابعًا: مراصد التفكير والبحوث:

يعتمد العالم المعاصر على مراكز الدراسات والبحوث التي تعتبر مخازن للتفكير، يتمّ فيها الدرس العلميّ للموضوعات والقضايا المهمّة التي تتعلّق بالدول أو المؤسّسات، كما أنّها تقدّم استشاراتها ونتائج دراساتها في الأمور المعنية بقضيّة ما؛ بهدف توفير الوقت والجهد من ناحية، وتوفير الخبرة العلميّة والدقّة والحكمة في الآراء المقدَّمة من ناحية أخرى، وهذه المراكز تقوم بدور المموِّل الفكريّ لنهضة الأمم والشعوب؛ بما توفِّره لها من نتائج علميّة لحلول مشكلاتها المختلفة.

وتعتمد هذه الآليّة على فكرة «**الجماعيّة العلميّة**» في مواجهة نزعات الإلحاد الفكريّ والروافد المؤدّية إليه، ومن ثمّ فإنّ تجاوز الفرديّة أو العشوائيّة في عمليّة المواجهة هو ما يبدو ضرورة الوقت في العالم المعاصر. وعلى الرغم من أنّ حركة «**الإلحاد الفكريّ**» في عالمنا العربيّ - على الأقلّ - في المرحلة الجنينيّة وما زالت أفكارهم تُطرَح على هيئة تساؤلات واستنكارات يتوهَّم البعض أنّها اعتقادات، كما أنّ هذه النزعة الإلحاديّة لم تتحوّل بعد إلى ظاهرة واسعة الانتشار- على الرغم من تسلّلها إلى بعض من قطاعات الناشئة والشباب - لكنّ الحالة العربيّة برمّتها تهيّئ مثل هذا المناخ السلبيّ ضدّ الإيمان، والذي يكون بالضرورة في صالح مضادّاته.

ومن هنا، تكمن وظيفة مراصد الإلحاد الفكريّ - التي نقترح تأسيسها- والتي تتمثّل في أربع مهام أساسيّة؛ هي:

المهمّة الأولى: الرصد الدقيق للظاهرة، وتتضمّن هذه المهمّة الوقوف على:

1. أهمّ الاتّجاهات المتعلّقة بنزعة الإلحاد الفكريّ في العالم؛ بصفّة عامّة، والعالمين العربيّ والإسلاميّ؛ بصفة خاصّة، من حيث (أنماط التفكير - الثقافة - البيئة - طبيعة الاستجابة).
2. الوسائل المستخدمة في الترويج للنزعات الإلحاديّة، أو ما يؤدّي إليها (كتب - مجلّات - وسائل تواصل - ...).
3. طبيعة الأفكار المقدَّمة (عاطفيّة - سلوكيّة - علميّة).
4. أبرز الكتابات التي يروّجونها؛ بوصفها أصولًا فكريّةً ومرجعيّةً.
5. شكل تناولهم (للإسلام) (نقد - استهزاء وسخرية - تجاهل - ...).
6. طرق الطعن في المقدّسات الإسلاميّة، وأهم المقدّسات التي يتناولونها بالطعن وكيف يتناولونها؟
7. موقفهم من الأديان الأخرى (اليهوديّة - المسيحيّة - الأديان الوضعيّة).

المهمّة الثانية: التحليل العلميّ والشامل، وتتضمّن هذه المهمّة تحليل البنية الفكريّة التي تقدّمها الكتابات والأفكار التي تروّج للإلحاد، أو التي يعتمد الإلحاد على طرحها؛ بوصفها مرجعيّةً فكريّةً له، وهي التي تم رصدها في المرحلة السابقة، ويتضمّن تحليل البنية الفكرية لخطاب الإلحاد؛ ما يلي:

- شكل الفكرة المطروحة.
- درجة تماسك الفكرة.
- الأصول المرجعيّة للفكرة.

- اتّجاهات عرض الفكرة.
- بيئة الفكرة.
- أهمّ المعاني التي تجسّدها الفكرة.
- لغة عرض الفكرة.
- أبرز الأفكار.
- جوانب تعضيد فكرة «**الإلحاد**».
- أهمّ المصطلحات المستخدَمَة.
- الاتّجاهات التي تقف خلف عرض الأفكار (مادّيّة - علميّة - فلسفيّة).
- تصنيف الأفكار ووضعها في قضايا وموضوعات.
- مبرّرات «**الإلحاد الفكريّ**» ومسوّغاته.
- قائل الفكرة (مصدر الفكرة)، وأهمّ المنظّرين والمفكّرين.

المهمّة الثالثة: تقديم المواد العلميّة (الدراسات والبحوث)؛ من أجل مواجهة علميّة يتوفّر فيها التنوّع والتخصّصيّة والشموليّة، وتأتي هذه المهمّة بهدف صياغة خطاب يواجه الإلحاد الفكريّ في مراكز أفكاره وتمدّداتها؛ وفقًا للمعلومات والدراسات والبحوث التي تمّ تهيئتها في المرحلتين السابقتين اللتين وفّرتا خلفيّة معرفيّة كافية تكون بأيدي الفريق البحثيّ في هذه المرحلة، حيث تتكوّن هذه المرحلة من فريق بحثيّ يضمّ تخصّصات متنوّعة؛ أهمّها:

- علماء كلام.
- باحثون في الفلسفة والفلسفة الإسلاميّة.
- علماء اجتماع.
- علماء نفس.
- علماء تربية.
- متخصّصون في العلوم الطبيعيّة.
- متخصّصون في العلوم الدينيّة (الدراسات القرآنيّة والحديثيّة).
- متخصّصون في الدراسات الحضاريّة.

- متخصّصون في المناظرات والحوارات.
- متخصّصون في فلسفة العلوم.

هذا الفريق البحثيّ المتكامل من الناحية الفنّيّة هو الذي يقوم بصياغة خطاب تجديديّ يعمل على ثلاثة أمور:

الأوّل: دعم الإيمان بالطرق العصريّة والملائمة ومعالجة النقص الوارد في التربية العقديّة والإيمانيّة، **والثاني:** صياغة خطاب يتضمّن تفنيد أفكار الإلحاد وتصوّراته وقيمه التي يدعو إليها، وبيان تهافتها ونقصها العلميّ وتشوّهها التربويّ والنفسيّ والوجدانيّ، **والثالث:** بناء خطاب إيجابيّ كامل لعرض أحقّيّة الإيمان على الإنسان، ويأتي هذا الخطاب في ضوء الثوابت الإيمانيّة من ناحية، والدرس المعاصر للمتغيّرات الحضاريّة وأنماط الإلحاد من ناحية أخرى.

المهمّة الرابعة: التدريب لبعض الفئات المجتمعيّة؛ بهدف توفير كوادر صالحة من البيئة الاجتماعيّة للمواجهة من المربّين والمعلّمين والإعلاميّين.

خاتمة:

حاولنا في هذه المقالة تقديم تصوّر إطاريّ لبناء آليّات لمدافعة «**الإلحاد الفكريّ**» ونزعاته وروافده، وهذا الإطار التصوّريّ الذي تقدَّم يقوم على خصائص عدّة أساسيّة؛ هي: العلميّة، والشموليّة، والواقعيّة، فهذه الخصائص الثلاث تحدّ ما قدّمناه في هذه الدراسة؛ سواء ما يتعلّق بالحفر المعرفيّ لتحديد مفهوم «**الإلحاد الفكريّ**» ونظريّاته المعاصرة والمنطلقات الأساسيّة للتعامل معه.

وفي ضوء هذا المثلّث الإطـاريّ (العلميّة، والشموليّة، والواقعيّة) انشغلت الدراسة ببناء أربع مداخل منهجيّة لمدافعة الإلحاد وروافده، أوّل هذه المداخل: خبرة الفكر الإصلاحيّ الحديث؛ باعتباره كاشفًا مبكرًا عن روافد الإلحاد الفكريّ ومغذّياته في العصر الحديث، ومن ناحية أخرى فقد

أرسى بما قدَّم من نتاجات فكريّة قواعد علميّة وفكريّة تمّكن من خلالها تفنيد أفكار الإلحاد المعاصر وآرائه وردّه إلى أصوله الفكريّة والفلسفيّة التي جاء منها، كما أنّه قدَّم -أيضًا- نماذج للردود الناضجة ودفع الشبهات عن ما يتعلّق بقضايا الإيمان والغيب، تناولنا نماذج منها.

أمّا المدخل الثاني، فيتعلّق بتجديد أبنية علم الكلام وتطويره؛ بما يتلاءم مع الحاجات الجديدة للمكلَّف في هذا العصر، والمشكلات الإيمانيّة التي يواجهها، والإجابات على أوجه التشكيك والطعن في المقدّسات التي تأخذ الآن شكلًا مختلفًا عن عصر نشأة العلم قديمًا. وقدمت الدراسة مجموعة من القواعد لهذا التجديد تشمل (المنهج والموضوعات)؛ بما يلائم القضيّة المثارة في هذه الدراسة؛ وهي «**الإلحاد الفكريّ**»؛ باعتبارها أحد أهمّ قضايا علم الكلام المعاصر.

وجاء المدخل المنهجيّ الثانيّ ليؤكِّد على البعد التربويّ والثقافيّ في مسألة المدافعة للإلحاد؛ باعتبار أنّ الإلحاد؛ كما الإيمان، يحتاجان إلى بيئة ملائمة للنموّ، وهذه البيئة تبدأ من الأسرة الصغيرة، إلى المجتمع الكبير، إلى المناخ الثقافيّ والقيميّ في المجتمع بصفّة عامّة، فقدّمت الدراسة خطّة تربويّة من عناصر عدّة - في ضوء القضيّة المثارة فيها- لإعادة بناء الدرس الإيمانيّ؛ بما يوافق العصر وقضاياه ومشكلاته للمؤمن، وتضمّنت هذه الخطة: الأهـداف، والمقوّمات، والمرجعيّة الفكريّة، والمبادئ، والمعرفة، وتصميم برنامج قرآنيّ، والإرشاد التربويّ.

أمّا المدخل المنهجيّ الرابع، فحاول لفت الانتباه إلى دور مراكز التفكير والبحوث في مواجهة نزغات الإلحاد الفكري ونزعاته، واكتشاف روافده، وضرورة أن تتحوّل هذه المدافعة إلى مدافعة جماعيّة شاملة وعلميّة؛ باعتبارها ضرورة حضاريّة للمحافظة على خطّ الأمّة الإيمانيّ الذي يؤكِّد حقيقة وجودها في العالم والتاريخ.